باب الإعلام:

1- أزمة الإعلام الساخر في الوطن العربي

(صحافة الكاريكاتير- قراءة في البدايات والواقع والمستقبل)

بقلم الدكتور: علي عبد الرحمن عواض
أستاذ مشارك - الإعلام والاتصال الدولي - الجامعة اللبنانية الدولية.
ali.awad@liu.edu.lb

تاريخ الاستلام: 2021/11/16 **تاريخ القبول:2021/11/25**

الملخص:

الراصد للواقع الإعلامي العربي، الصحافي تحديداً، يلحظ بشكل لا يقبل الجدل، هذا التراجع البيّن للصحافة العربية الساخرة والكتابة النقدية في الوطن العربي، وتحديداً غياب الكاريكاتير السياسي، في زمن يوصف بزمن الحريات الإعلامية والانفتاح على الآخر وصحافة المواطن. حيث تعتبر الدراسة الحالية استكمالاً لدراسة بحثية سابقة منشورة في مجلة الآداب والعلوم الإنسانية المحكمة، تناولت فيها موضوع الصحافة الساخرة في الوطن العربي (مقاربة تاريخية للصحافة الساخرة في الوطن العربي)، حاولت أن أرصد فيها مسيرة الصحافة الساخرة بشكل عام، ثم جاءت هذه الورقة استكمالاً ورصداً للتغيير الذي تعيشه الصحافة العربية عموماً، والساخرة تحديداً، في ظل التراجع الواضح لمستوى الحريات المتاحة، وآليات التعامل مع النقد والمعارضة في الدول العربية، التي أصبحت أكثر تصلباً في مواجهة الرأي الآخر والكتابة الناقدة والموقف المعارض، فالحرية في إبداء الرأي والموقف، كانت وستبقى الرافعة الأهم في مسيرة الصحافة الساخرة.

هذه الظاهرة الإعلامية تراجعت في الواقع العربي إلى درجة توقف معظم الصحف الساخرة عن الصدور (ورقياً أو إلكترونياً)، وصولاً إلى حد الجفاف في المطبوعات الساخرة، وغياب العديد منها. يقول الدكتور إبراهيم غرايبة إن «السوداوية والتشاؤم يسودان المشهد الإعلامي العام، عند الحديث عن مستقبل الكاريكاتير»، مع الإشارة إلى أن الفضاء الافتراضي أنتج كماً يمكن أن يعوض، إلى حدٍ ما، النقص أو التراجع، في ميدان المطبوعات المتخصصة في هذا المجال. البعض وصف الكاريكاتير بالفن

«الذي فقد توهجه"، كونه مثّل رأس حربة في المعارك الإعلامية التي خاضها الشارع الإعلامي العربي. فالدراسة إذن، تقلب صفحات تاريخ الكاريكاتير العربي وترصد وتنقب في واقع الصحافة الساخرة بشكل عام، والكاريكاتير السياسي تحديداً، كونه من أقدم الفنون الاتصالية التي مارستها الشعوب والحضارات.

الكلمات المفتاحية:

الكاريكاتير، الإعلام الساخر، الكارتون، السخرية السياسية، النقد الفني، الصحافة العربية، الصحافة الساخرة

Abstract:

People commonly perceive political cartoons with a smile; thus, they might classify it as comics or humorous messages. It is much more serious. Political cartoons or editorial cartoonists typically combine artistic skills, exaggeration and satire in order to question authority and draw attention to corruption, dishonesty, political violence and other social "ills" by creating a humorous mood; they construct it through analogies, exaggerations, and symbolism. Scientific research has shown that political cartoons have proved to be extremely powerful media for mocking, satirizing and criticizing the odds in the society. Historically, cartoonists have played an active part in documenting and voicing different views through using these persuasive techniques: Symbolism, Exaggeration, Labeling, Analogy, and irony.

Although the paper aims at tracing back the history and development of political cartooning process in the Arab world, it will provide a socio-political framework in order to obtain an insight into the cultural values, beliefs, and attitudes of the societies that had produced them, in other words, pointing out the political and social environment. Cartooning has long been a pillar of the public

discourse in the Arab world, especially during authoritarian times. The purpose of this study is producing a historical approach of the circumstances, challenges and obstacles that have controlled the .art of political cartooning in the Arab world

تمهيد:

غالباً ما تترافق الرسوم الكاريكاتيرية بابتسامة من القراء، تصل أحياناً إلى حد القهقهة، الأمر الذي قد يفهم لدى البعض أن هذا النوع من الإنتاج الإعلامي، لا يعتبر جاداً بالقدر الذي تحصده الأخبار والفنون الكتابية الأخرى، كالمقالات أو التحقيقات أو التقارير الصحافية. ولكن الحقيقة، وبشهادة الدراسات والمتابعات العلمية، فإن الكاريكاتير يعبر بكلماته القليلة، أو تلميحاته السريعة، عن محتوى بحث كامل أو تقرير مطول، أو ربما تحقيق صحافي موثق، وبشكل سريع ومباشر دون الدخول في التفاصيل. من هنا عرفه البعض بأنه «مقالة مرسومة». كما أنه فن ضارب في التاريخ، وعريق كالكلمة، إن لم نقل إنه كان أسبق من الكلمات في التعبير عن المواقف أو الأوضاع في المجتمعات.

يرى الباحث الأردني الدكتور محمد جرادات، في دراسته المنشورة بعنوان «الكتابة الساخرة في الصحافة– محاولة للقراءة» أن «الكتابة الساخرة بوصفها فعلاً وموقفاً ليست ابنة الأمس، إنما هي ابنة التاريخ منذ القدم، هي حالة ثورية وتغييرية، نقدية وهجومية، ولا تقبل المديح، وسياسية بامتياز حتى لو ظهرت بألوان أخرى، وفي منتهى الجدية، ولو أضحكتنا أو أبكتنا، وهي ليست حالة طارئة عبر التاريخ، إنها موقف شامل وجذري، ذو طابع ثوري، جوهره التغيير»[1]. وتتساءل داليا عاصم، في دراستها حول مصير (الصحف العربية التي أضحكت العالم حتى اختفت)، لماذا يزدهر لون صحافي معين؟ ولماذا يختفي؟ ما الذي أدى لظهور الصحافة الفكاهية وصدور عدد من المطبوعات المخصصة لها؟ تساؤلات كثيرة تُطرح عند الحديث عن الصحافة الفكاهية، التي كانت من أبرز فنون الكتابة الصحافية في نهايات القرن التاسع عشر وحتى مطلع القرن الحادي والعشرين[2]. أما عن حرية التعبير التي يحتاجها هذا الفن

(1) جرادات، د. محمد، الكتابة الساخرة في الصحافة- محاولة للقراءة، دار الان ناشرون وموزعون في عمان، 2018م.

(2) داليا عاصم، «أبو نظارة» و«الدبور» و«النديم»... جرائد أضحكت العرب حتى اختفت، صحيفة الشرق الأوسط - الاثنين - 8 شعبان 1439 هـ - 23 أبريل 2018 مـ رقم العدد 14391

فيرى الناقد سعد القاسم أن: «..حرية العمل هنا تكون في فن التحايل على الممنوع»[1]. لقد ارتبط الكاريكاتير بالصحافة منذ بداياتها منذ اختراع المطبعة، مشتركاً معها في الانطلاقة، منذ إرهاصاتها الأولى، حيث كانت الرسوم تحل محل الصور. ولذا فإن الكاريكاتير لصيق بالصحافة وفنون الاتصال الجماهيري والإنساني الأخرى، إلى الحد الذي يمكّننا من القول إن الكاريكاتير والصحافة توأمان، لا يمكن فصلهما عن بعضهما البعض، حيث يقوم الكاريكاتير بالوظيفة الخبرية، كالمادة الصحافية، وأيضاً بالوظيفة الجمالية والاستهلاكية والتربوية التي تعالج ظاهرة سلبية ذات طبيعة انتقاديه مثل الفساد، أو الرشوة، أو معالجة قضية اجتماعية بأسلوب ساخر، ثم يقوم بالوظيفة المعلوماتية والتحريضية والنضالية والسياسية.. وهي وظائف الصحافة[2]. حيث يؤكد الباحثون في تاريخ فن الكاريكاتير أن أسباب ارتباط الكاريكاتير بالصحافة هو التشابه في الوظائف بينهما، الأمر الذي يجعل الصحافة بحاجة إلى الكاريكاتير، كما أن الكاريكاتير بحاجة إلى الصحافة[3].

الحقيقة أنه لم تخل الساحة الفكرية والبحثية العلمية العربية من الدراسات التي سبرت أغوار هذا الفن الصحافي، كتلك التي تناولت منطقة جغرافية معينة أو شخصية محددة، ولكن الراصد والمتابع يجد أنه لا زلنا بحاجة إلى الكثير من الدراسات الكشفية والتحليلية، للتعرف على الدور الذي لعبه فن الكاريكاتير في مسيرة وتطور الصحافة العربية. ومع الوجود المقنن لبعض الدراسات السابقة التي حاولت رصد وتأصيل الفهم وتدوين وتأريخ الصحافة الساخرة في الوطن العربي، ولكنها لم ترق إلى ما يسمى بالظاهرة البحثية التي تغطي وتوثق الجوانب المتعددة للظاهرة. آملاً أن تضيف هذه الدراسة إلى الرصيد العلمي لتغطية وفهم وتحليل ظاهرة الصحافة الساخرة والكاريكاتير المرسوم والمنشور في الصحافة العربية، ورصد لمسيرة فنانيه، وتأريخ وتوثيق لبعض إنتاجهم، خاصة أن البعض منهم نال شهرة عالمية وحصد جوائز مهمة تؤكد إبداعهم وتشير إلى أهمية وتميز إنتاجهم.

---

(1) من تقرير في موقع شام تايمز الإخباري بعنوان: ما قبل تأبين فن الكاريكاتير وواقعه بين اليوم والغد ... الشماع لـ«الوطن»: التأثير ما زال موجوداً إلا أن هناك الكثير من المتغيرات أثرت في هذا الفن. 05-02-2020 - https://n.cham-times.com/archives/269343

(2) عبدالناصر حسو، الكاريكاتور: الضحك المرّ، صحيفة الثورة السورية، ملحق ثقافي، 2/10/2007م.

(3) حمادة، د. ممدوح، فن الكاريكاتير من جدران الكهوف إلى أعمدة الصحافة، دار عشتروت للنشر، دمشق، 1999 (ص:197)

فالإشكالية التي تعمل الورقة البحثية على معالجتها هي مقاربة تاريخية لدراسة المتغيرات والظروف التي أدت الى انحسار الصحافة الساخرة في الوطن العربي، أو مسيرة صحافة الكاريكاتير السياسي في الوطن العربي. من خلال رصد الأدبيات والمنشور في الميدان، انطلاقا من التساؤلات التالية:

- ملامح تراجع وضمور الكاريكاتير في الصحافة الناقدة في العالم العربي (الوظيفة النقدية للصحافة)؟
- ما هي أبرز التحديات التي تواجه الصحافة الساخرة في الوطن العربي؟
- ما هي أسباب التراجع الذي أصابت هذا الفن الصحافي العريق.
- كيف تفاعلت الصحافة الساخرة مع التغييرات التقنية في ميدان النشر والذي يواجه تغييرات كثيرة عالميا.. ومحلياً.
- مدى «الجدية» التي تمثلها الصحافة الساخرة في الشارع العربي.
- السياق والإطار السياسي والإعلامي الذي تعمل فيه الصحافة الساخرة في الوطن العربي.

موقع الصحافة من الفن الساخر بشكل عام.

كما نشير هنا إلى أن الدراسة التي بين أيدينا هي من البحوث الوصفية، التي تركز على طبيعة وسمات وخصائص ومسيرة وواقع الصحافة الساخرة في الوطن العربي، وذلك من خلال إخضاع الظاهرة للتحليل لاستخلاص النتائج التي يمكن اعتمادها وتقنين نتائجها من خلال استقراء المراجع والبيانات والأدبيات التي وثقت للظاهرة (الصحافة الساخرة في الوطن العربي). وقد اعتمدت الدراسة المنهج المسحي، للخروج منها بدلالات واستنتاجات بحثية، من خلال عرض المواد التي كُتبت في ميدان الصحافة بشكل عام، وصحافة الكاريكاتير أو الصحافة الساخرة في الوطن العربي تحديداً.

وقد استعان الباحث بعدد كبير من المواد الصحافية والرسوم والمراجع المتوفرة في المصادر المطبوعة أو على شبكة الإنترنت، حيث إنه من الملاحظ أن غياب الصحف الكاريكاتيرية الورقية المطبوعة في العالم العربي، يتم عملياً تعويضه بالنشر الإلكتروني من خلال مواقع الصحافة الإلكترونية، كما برزت العديد من المواقع الالكترونية التي تعرف نفسها على أنها صحافة ساخرة، أو مواقع كاريكاتورية ساخرة. ويبقى أن أؤكد أن الدراسة لا تهدف إلى تحليل مضمون الصحافة الساخرة في الوطن العربي، وإن كنت أرى أن دراسات تحليل المضمون للكاريكاتير ستؤمن العديد من الإجابات لكثير

من الأسئلة البحثية، التي ما زالت بحاجة لإجابات عملية مقننة. كما تهدف الدراسة إلى توصيف الواقع المعيش للكاريكاتير، حيث ترصد التطور التاريخي والتحولات التي طرأت على هذا الفن الصحافي العريق، من خلال تأثيرات الأحداث والتحولات السياسية والاجتماعية والفكرية والتغيرات الاقتصادية والتقنية على مسيرتها مهنياً، وصولاً إلى المرحلة الحالية والتي يمكن أن تعتبر، بشكل واضح و«بشهادة» العديد من القرائن والأدلة، مرحلة تراجع لهذا الفن، والذي كان له وجود وحضور أكبر وأوضح، ودور أهم في الفترات الزمنية الماضية، عندما كانت البلاد العربية (والتي كان يرزح معظمها تحت نير الاستعمار الخارجي) تزخر بعدد كبير (بالفعل عدد مميز) من المطبوعات الساخرة والمجلات والصحف الكاريكاتيرية الناقدة التي ساهمت في رفع الصوت وتوجيه الجماهير، وعملت على تأكيد دورها الريادي في الميدان الإعلامي. الأمر الذي أودى بالعديد من هذه الصحف إلى التوقف لفترات محددة أو بشكل نهائي. كما تسبب في مطاردة «صحافييها» وسجنهم أو نفيهم، وأحياناً، كانت حياة بعضهم ثمناً لعملهم الصحافي الجاد هذا، والمقولب بابتسامة، تخفي وراءها جرأة وحزماً ومواقف حازمة.

الكاريكاتير.. صورة مرسومة بريشة النقد والسخرية:

لا بد من تأكيد المؤكد بأن الرسم «الكاريكاتيري» من أقدم الفنون الاتصالية، إذا لم نقل أقدمها، من خلال القراءة التحليلية الإعلامية للآثار والموروث الفني والرسوم والرموز التي خلفتها الحضارة الفرعونية القديمة (تحديداً أو الحضارات الأخرى التي تركت رسوماً ورموزاً مشابهة). فقراءة نقدية للحضارة الفرعونية تؤكد أن الفراعنة كان لهم بالفعل نشاط «كاريكاتيري» واضح ومميز. حيث اعتبر الكاتب المصري عادل عبد الوهاب بأن «البرديات الفرعونية شهدت الميلاد الأول لفن رسم الكاريكاتير، قبل نحو أربعة آلاف عام. وإذا كان إنسان العصر الحجري قد رسم على جدران كهوفه صوراً مبالغا في ملامحها للحيوانات التي خاف من خطرها، فسخر منها في رسومه، فإن الأمر يختلف كثيراً عن تثمين الرسوم الفرعونية الهزلية التي نقشت على جدران المقابر إلى جانب البرديات، فقد مثلت – بحق – الإرهاصات الأولى لفن الكاريكاتير بدرجة قريبة إلى حد كبير من تعريفاته الحديثة، فضلاً عن أن تلك الإرهاصات نضجت وتواصلت فاستمرت رحلة هذا الفن.. إلى اليوم»[1]. رسام الكاريكاتير لا يقول أو يحكي بل يرسم، ولذلك عليه أن يمتلك عقلية الجزار ومبضع الجراح، بمعنى أن يكون جريئاً في طرحه وغير مباشر،

(1) عبد الوهاب، عادل، البرديات الفرعونية شهدت الميلاد الأول للكاريكاتير، ملف البيان السياسي، العدد 462، الخاص بالكاريكاتير، 24/3/2000 (ص: 10)

وماهراً في معالجة بذكاء وبراعة.

طبعاً لا بد في هذا السياق من تسجيل آراء بعض الباحثين الذين يعترضون على اعتبار هذا النوع من الرسومات كاريكاتيراً بالمعنى الحرفي والمعاصر للكلمة. فالباحث عبده الأسدي مثلاً لا يوافق على هذه القراءة للرسوم الفرعونية، حيث يرى: «أن البعض يعتقد أن الرسوم المدرجة على جدران الكهوف والمعابد تعتبر نوعاً من الكاريكاتير أو الكاريكاتير بعينه، وهذا التقسيم ينتزع الرسوم تلك من سياقها التاريخي، بمعنى أن تلك الرسوم جاءت في مرحلة تاريخية معينة، وعبرت عن ثقافة تلك المرحلة، وهو ما يمكن أن يُطلق عليه الأسطورة أو الميثولوجيا الدينية، فتلك الرسوم هي إلى هذا الحد أو ذاك لا تخرج بتاتاً عن الإطار الثقافي لواقعها التاريخي. فمثلاً عندما رسمت عشتار بشكل ظهرت فيه ملامحها الأنثوية مبالغاً فيها بشكل ملحوظ، لم يكن هذا الرسم يهدف إلى المبالغة من أجل الإضحاك، أو السخرية من عشتار، أو الأنثى على وجه العموم، بل كان رمزاً دينياً راسخاً ومتأصلاً في بنية الوعي الميثولوجي[1]».

وعن الظرافة والنكتة والابتسامة التي يتضمنها الكاريكاتير، يؤكد الباحث الدكتور أسامة كبارة بأن «الذات العربية ليست تراثاً متجهماً أو عبوساً، ولكنه تراث ضاحك لم يلق معظمه حظاً من الشهرة والدرس»،[2] وأن الدراسات التي تناولت الأدب الساخر في الثقافة العربية لا تعطي الموضوع حقه، إذ إن التراث العربي يحوي كماً هائلاً من الأدبيات التي يمكن تصنيفها ضمن الأدب الساخر أو الفن الساخر. يقول البشري « ترد النكتة إلى خلل في القياس المنطقي بإهدار إحدى مقدماته أو تزييفها، أو بتوصيلها بحكم التورية ونحوها بما لا تصل به في حكم المنطق المستقيم، فتخرج النتيجة على غير ما يؤدي إليه العقل لو استقامت مقدمات القياس.. وهذا الذي يبعث على العجب ويثير الضحك. كما يرى البشري أن الإضحاك يعود إلى التناقض بين المقدمات والنتائج، فسرعان ما يغمرنا الضحك»[3].

الكاتب محمود منير يرى في مقالته: مفسدات الكتابة الساخرة، إلى أن هذه الكتابة غالباً ما تكون متنفساً للسلطة من خلال تقديمه بقالب النقد، حيث «يتواطأ الإعلام العربي على الترويج لـ «النكتة» وتسميتها بالكتابة الساخرة؛ مقالات تتناثر في صحف عدة وظيفتها

(1) عبده الأسدي وخلود تدمري، دراسة في إبداع ناجي العلي. (15)

(2) كبارة، د. أسامة محمد ظافر، لكل مقام مقال، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 2004م. (ص 15)

(3) هل نحن أمة ضاحكة ؟... بقلم : البراغماتي، نشر بتاريخ: 2008-1-19 على الموقع:

http://www.syria-news.com/home.php

الأساسية تحويل هموم القارئ إلى مادة للضحك العابر والمؤقت والخاطف، من خلال تثبيت السائد الاجتماعي بكل أركانه. السلطة التي أحيت السخرية تستطيع أن تميتها»[1].

وعن اللغة المكتوبة المرافقة للرسوم الكاريكاتيرية في الصحافة العربية، فقد يكون استخدام العامية في التعبيرات التي ترافق الرسم الكاريكاتيري، انعكاسا لرسالة الكاريكاتير الأصلية والتي هي صدى للصرخة التلقائية التي تعكس الواقع، في الحياة اليومية بلا محسنات لفظية، أو دقة صياغة، أو نحو وإعراب. فهو في كل قطر عربي يتحدث بلسان الشارع بتلقائية معتمداً على الرصيد الثقافي والشعبوي والرمزي لهذا المجتمع أو ذاك، وتعبيراته المحلية ورموزه التي قد تشترك مع غيرها في القطر الآخر، مع الإبقاء على بعض الخصوصيات في حال معالجة الكاريكاتير للقضايا المحلية البحتة..

وحول أهمية وجدية الرسوم الساخرة (الكاريكاتير تحديداً)، وهل يمكن قراءة التاريخ السياسي الاجتماعي من خلال الرسوم الكاريكاتورية؟ أي هل يمكن اعتماد الرسوم الكاريكاتورية كمراجع أو وثائق ترقى لمستوى اعتمادها في توثيق المرحلة. إن أي قراءة تحليلية للأحداث في فترة زمنية ما، لا بد أن تصاحبها قراءة معمقة لأدبيات وفنون وأشكال التعبير التي ظهرت في تلك الفترة المحددة. والكاريكاتير السياسي، وإن لم يشكل تدويناً تفصيلياً للأحداث، لكنه يقدم بطريقته الخاصة أنماط السلوك الاجتماعي والسياسي، ويدون أنماط الحراك والفكر السائد في مجتمع ما. حيث يرى الباحث علاء عبد الوهاب أن «الكاريكاتير الفرعوني، فضلاً عن تأكيد ريادته، فإنه يمكن تثمينه كوسيلة لقراءة الفن المصري القديم، ثم اتخاذه قارباً للإبحار في حضارة عريقة لم يكتشف العالم بعد كل أسرارها»[2]. ويرى آخرون أن الكاريكاتير السياسي يقوم بالتأريخ لمرحلة معينة على اعتبار أنه مواكب للحدث. وليس هذا فحسب، بل يقدم التاريخ «بتحزب واضح جلي، فهو يعلن ضمن ممارسته لعملية الرسم الكاريكاتيري انتماءه الصريح لهذا الفكر السياسي أو ذاك، لهذا البنيان السياسي الثقافي الاجتماعي أو ذاك»[3]. ما يؤكد على أهمية الدراسات التحليلية والتوثيقية للرسوم الكاريكاتيرية، في رصد المتغيرات السياسية والاجتماعية في مرحلة محددة، في مجتمع بعينه.

---

(1) منير محمود، مفسدات الكتابة الساخرة،آداب وفنون – العربي الجديد، 24 يونيو 2015 https://www.alaraby.co.uk/

(2) عبد الوهاب، علاء، البرديات الفرعونية شهدت الميلاد الأول للكاريكاتير، ملف البيان السياسي، العدد 462، بعنوان الكاريكاتير ومبدعوه، 24÷3/2000 (ص: 10).

(3) الأسدي (ص: 24)

هل فقدت الصحافة الساخرة بريقها؟

الراصد لتاريخ ومسيرة وتطور الصحافة الساخرة يلحظ ظاهرة تراجع واضحة في العمل الإعلامي الساخر، أو صحافة الكاريكاتير... لا بل في الواقع الإعلامي العام، حيث إن المؤشرات تؤكد تراجعاً ملحوظاً في الحريات والممارسة الإعلامية. ولا بد من الاعتراف بأنه، وعلى امتداد الوطن العربي، فإن الكثير من المكاسب التي نالها الإعلام بالجهد والنضال المستمر قد أذابتها الممارسات المتسلطة للأنظمة السياسية وأسقطتها في مستنقع الجمود، تحت شعار المحافظة على الأمن والاستقرار. والمشهد الأكثر سخرية في الأمر، بأن مسألة الأمن والاستقرار الذي تتكئ إليها السلطات، في تقليص الحريات والنقد هي أبرز أولويات فن الكاريكاتير، وأهم طموحاته. والمتابع لتاريخ الصحافة العربية، مع ما تحويه من المجلات الساخرة، التي كان لها رواج وتأثير كبير أوائل القرن الماضي، يصدم بواقع الصحافة الساخرة في السنوات الأخيرة، فهل السبب يعود لتضييق الرقابة على الصحافة الساخرة، وهل لثقل قبضة الرقيب في العديد من الدول العربية على الإعلام بشكل عام هذا التأثير الخطير، أم أن جميع هذه العوامل تكاتفت لتقيد مسيرة الصحافة الساخرة بعد انطلاقتها الواعدة، وجميعها أسئلة مشروعة تطرحها الوقائع والمقالات والتعليقات العلمية.

يرى الدكتور صفوت العالم الأستاذ بكلية الإعلام جامعة القاهرة: «أن الصحافة الساخرة لم تعد ذات تأثير مثلما كانت من قبل، وهي صحافة قلة؛ لأنها مرتبطة بالوعي المستنير لدى القارئ. مؤكداً أن أي صحيفة ساخرة عندما تصدر ستواجه قيودا رقابية وستواجه حرباً في التوزيع». وبشكل عام، فإن المتابع لمسيرة الصحافة الساخرة في الوطن العربي، يجد أن المنطقة كانت تعج بالصحف الساخرة والرسوم الكاريكاتيرية بالمقارنة مع الجفاف الذي يسم الواقع الحالي في العالم العربي اليوم. يقول انطونيوني فاسكوني رسام الكاريكاتير الإيطالي الشهير، أن الشرق هو الجذر الحقيقي للكاريكاتير وكان وسيلة الفنان لنقد العادات والتقاليد الاجتماعية بالسخرية منها، لكنه لم يرتفع إلى مستوى نقد السلطة فالسلطة في الشرق دائماً مقدسة وكذلك كانت في أوروبا. كما يؤكد الفنان بيرتو بيرتوليتي أنه: «حين يقمع الكاريكاتير، تقمع الحرية، وبمدى حرية فنان الكاريكاتير، أقيس حرية الشعوب وأعرف طبيعة الأنظمة التي تحكمها، وهو ليس متنفساً للغيظ فحسب، كما يريد أن يصوره البعض، بل هو المرآة الحقيقية لما يجري أمام وخلف الكواليس[1].

ومن المسلم به أن الشروط الواجب توافرها في فن الكاريكاتير لتحقيق فاعليته في

(1) عبدا لناصر حسو، الضحك المرّ، صحيفة الثورة السوريـة، ملحق ثقافي، 2/10/2007م.

الصحافة وتأثيره في المشاهد، هي توافر عنصر الكوميديا الساخرة والتي تنقسم إلى الفكاهة، والضحك البسيط (الابتسامة) الضحك المركب (القهقهة)، وكذلك توافر عنصر الموضوعية الذي يكون أكثر حيوية ومصداقية كي يحظى باهتمام المشاهد والقارئ بمتابعة الموضوعات السياسية والاجتماعية والاقتصادية اليومية الساخنة، وأيضاً يتوافر فيها عنصر الوضوح كي لا يثير التساؤلات والشكوك والتأويل والتفاسير. وهنا يؤكد الفنان عبد الرحيم ياسر، الذي يرى في الحياة العادية مادة للعمل الفني الساخر، أن «الحياة العادية تجري بشكل رتيب، وفجأة تظهر مفارقة، قد لا ينتبه لها الكثير، ولكن رسام الكاريكاتير يصطادها ويطورها لتصبح بين يديه، عملاً فنياً ذا شأن عام»[1].

الكتابة الساخرة... ليست فقط نكتة وابتسامة:

يقول الكاتب الإنكليزي الساخر جوزين أديسون حول الفكاهة: «الضحك الراقي إنسان جده الأعلى الحقيقة، وقد أنجبت الحقيقة أبا أسمته حسن الرأي، وهذا بدوره أنجب الذكاء، الذي تزوج امرأة من قريباته اسمها الفرحة، فأولدها مولودا اسمه الفكاهة»[2]. وحيث لا يزال مفهوم «الكتابة الساخرة» مرتبكًا، وغير واضح المعالم عند الكثيرين، لا بد من الاشارة الى أن بين الهزل والسخرية مسافة قصيرة، قد تُشكِّل خلطًا عند البعض، فإذا كان الهزل مرادفًا للتفكّه، فإن السخرية قد تكون بمنتهى الجدية، فهي إذن «حالة ثورية وتغييرية، نقدية وهجومية، تسعى نحو التغيير، ونقد كل ما هو قائم، وليست دعوة إلى الضحك والترويح والترفيه»[3]. وتعرفها دراسة بعنوان: «الكتابة الساخرة فن أدبي يتراجع في العالم العربي»، بأنها «مثل حامض الكلور لينة غير مباشرة ولكنها فعّالة»[4]. كما أن الكتابة الساخرة ضاربة في الماضي البعيد للأدب العربي الذي حفَل بمؤلَّفات تصطبغ بالنكهة الكوميدية، مثل كتاب (البخلاء) للجاحظ و(نوادر جحا) و(أشعب ملك الطفيليين) ... وغير ذلك كثير. فالكتابة الساخرة ليست نكتة ساذجة، ولا تهريجاً أبله، ولا تصنع الكلمة للضحك، بل تأخذ فكرة جادة يقولبها إبداع الكاتب الساخر، لتصل إلى ما عجزت عن الوصول إليه الكتب النخبوية، والأبحاث المملة، والمقالات المطولة[5]. وبتوسع أكثر مع المصطلح

(1) جريدة الصباح - العراق , 19 تشرين الثاني (11) 2006

(2) مرجع سابق

(3) جرادات، د. محمد، الكتابة الساخرة في الصحافة- محاولة للقراءة، دار الان ناشرون وموزعون في عمان، 2018م.

(4) تقرير لصحيفة العرب بعنوان: الكتابة الساخرة فن أدبي يتراجع في العالم العربي العدد: 12108 السنة 43 السبت https://alarab.co.uk 2021/07/03/

(5) حمد الماجد، الكتابة الساخرة المهددة بالانقراض، صحيفة الشرق الأوسط، الثلاثاء - 28 شوال 1442 هـ - 08 يونيو 2021

يقول الكاتب الجزائري الساخر عمار يزلي بأن الكتابة الساخرة «مثل حامض الكلور. لينة مسالمة، غير مباشرة ولكنها فعالة، تقول شيئا وهي تريد أن تقول شيئا آخر»[1].

وهذا النوع من الكتابة هو فن أدبي صحافي يحتاج إلى مهارة عالية ودراية واسعة باللغة ومداخلها، كما يصفها الأديب الساخر أحمد رجب: إن هذا النوع من الكتابة سلاح الفقير على الغني، وسلاح الضعيف على القوي، وسلاح المظلوم على الظالم.. والكتابة الساخرة في عصرنا تعد ثورة على كل شيء، حتى على اللغة، هنا يؤكد الكاتب الصحافي جلال عامر... أن كل من أمسك بقلم اعتبر نفسه كاتبًا ساخرًا لمجرد أن أصدقاءه أخبروه بأنه خفيف الدم، وهذا غير منطقي، فإذا لم يمسك الكاتب بمفاتيح الكتابة الساخرة تفقد جاذبيتها، وتصبح أشبه بالنكات التافهة، خاصة أن هذا النوع من الكتابة يحتاج إلى موهبة خاصة وحس رفيع المستوى، وعين ناقدة، وثقافة عالية وشجاعة تفتح أمامه الأبواب المغلقة..[2] ولهذه أصبحت بعض «الأفيشات» الساخرة أو الدبابيس كما يسميها البعض من السمات التي تميز بعض الكتاب والنقاد، ومقولاتهم الأكثر تداولاً ورواجاً؛ خذ مثلاً بعض مقولات الكاتب جلال عامر رحمه الله: «الأمة التي تفضل التغيير وهي على السرير، لن يغيروا لها إلا (البامبرز)»، «نشكو من التدخل الأجنبي بعد أن نرسل لهم بطاقة الدعوة»، «في العالم الثالث يمتلك الحاكم حكمة لقمان، ورجال الأعمال مال قارون، والشعب صبر أيوب»، «بعد أن حصل على (الليسانس) بدأ في (تحضير) الماجستير، وبعد أن حصل على (الماجستير) بدأ في (تحضير) الشاي للزبائن»، «إننا شعب مغلوب على أرضه وبين جماهيره»[3].

الكاتب اللبناني سمير عطا الله يؤكد أن... الدليل على أن الكتابة الساخرة هي أصعب أنواع الكتابة، ندرة كتّابها. مقابل عشرات الأدباء والشعراء والمفكرين في مختلف المراحل، تجد عدداً قليلاً جداً من كتّاب السخرية المعتبرين. ففي مصر، ظهرت أسراب من الكتّاب «العامّين»، وظهر إلى جانبهم بضعة أعلام ضاحكين مثل إبراهيم المازني،

مـ رقم العدد [15533] https://aawsat.com/home/article/3014866/

(1) عـمار يـزلي، الكتابـة السـاخرة تشـبه الزئبـق والكاتـب السـاخر أذكى مـن الرقيـب، ليـس جميـع المتظاهريـن الجزائريـين معارضـين.. بعضهـم يخـرج ليتفـرج.. وغيرهـم ليتـزوج! العـدد: 11606 السـنة 42 التاريـخ 3/2/2020م.

https://alarab.co.uk/ %D

(2) البيـان الإماراتيـة، «الكتابـة السـاخرة» ابتسـامة باكيـة في زمـن «النكتاجيـة»، 2010-5-12م. https://www.albayan.ae/five-senses/2010-05-12-1.243906

(3) حمـد الماجـد، الكتابـة السـاخرة المهـددة بالانقـراض، صحيفـة الـشرق الأوسـط، الثلاثـاء - 28 شـوال 1442 هــ - 08 يونيو 2021 مـ رقم العدد [15533] https://aawsat.com/home/article/3014866/

ومحمد عفيفي، ومأمون الشناوي. وكان آخر الكبار وأكثرهم سحراً وأغزرهم عطاء «الولد الشقي» محمود السعدني، الذي غاب قبل عشر سنين من دون خلف معروف. واحتفلت السينما ببلوغ عادل إمام الثمانين من دون ظهور مثيل له، لأن الكوميديا في الفن صعبة مثل الفكاهة في الأدب[1]. وشأنها شأن النكتة السياسية، فإن الكتابة الساخرة، والشعارات الساخرة، والأفيشات الساخرة (بالمصطلح المصري)، غالباً ما تنتشر بشكل كبير في زمن الأزمات والحراك الجماهيري، حيث تكون «النفوس مفتوحة» لقبول السخرية والنكتة والنقد من الزعيم أو القائد موضوع القضية. وقد أنتج الحراك الشعبي في الدول العربية كماً مذهلاً من الإنتاج الجماهيري» الذي يستحق بالفعل التحليل والدراسة واستخراج نتائج حقيقية حول التفكير والواقع والمتغير في الشارع والفكر الشعبي للمواطن العربي.

فمع تفجر ثورة الشارع المصري بعد الخامس والعشرين من يناير، تفجرت ثورة النكات السياسية، التي أصبحت بفضل وسائل التواصل الاجتماعي إحدى أهم سمات الشارع الغاضب. بعضها اعتمد الرسم (الكاريكاتيري تحديداً) وبعضها الآخر ظهر بقالب النكتة والطرفة المنطوقة أو المصورة (وكثيرة هي المشاهد واللقطات التي رصدت ووثقت الآلاف منها) وبعضها الآخر التزم الكلمة والتعليق والنكتة السريعة... كما أن تونس والعراق وسوريا واليمن... وبقية الدول العربية لم تكن بعيدة عن هذه الأجواء، والنماذج كثيرة.

التجارب العربية مع الصحافة الساخرة:

وبعيداً من الخوض في البدايات التاريخية للكاريكاتير كفن اتصالي، فإن المراجع تؤكد أن عصر النهضة في أوروبا حمل معه الإرهاصات الحقيقية لفن الكاريكاتير بمفهومه المعاصر. والعديد من المراجع تنحو إلى إرجاع البدايات الأولى للكاريكاتير إلى الفنان العالمي الشهير دافنتشي. وحتى في بداية عصر النهضة» لم يكن هناك فن كاريكاتير بالمعنى الحرفي للكلمة رغم أن هذه المرحلة تعتبر بحق مرحلة ظهور اللبنات الأولى لفن الكاريكاتير الحديث، إلا أنه، وإن لم يكن هناك فن كاريكاتيري، فإن عناصر المبالغة الساخرة أخذت تظهر في أعمال فنانين كبار يتربعون على عرش الساحة الفنية كدافنتشي، الذي يمارس بدوره نوعاً من رسم يمكن مقاربته بالكاريكاتير نراه في دراساته التخطيطية، يبالغ

(1) سمير عطا الله، أين اختفى الساخرون؟ الشرق الأوسط، السبت - 25 شوال 1442 هـ - 05 يونيو 2021 مـ رقم العدد [15530] https://aawsat.com/home/article/3010031/

ويغالي في تحديد ملامح وتعابير الوجه وعضلاته.[1]، وغيره من الفنانين الذين كانوا يسعون إلى الخروج عن المقاييس التشريحية الأكاديمية في تصوير ملامح الجسم البشري»[2].

ولعل شارل فيليبون بإصداره مجلة أطلق عليها اسم «الكاريكاتير» يكون قد سجل سبقاً في هذا النوع من الصحافة المطبوعة منذ العام 1830م. وثمة فنانون يمكن الاستشهاد بهم بوصفهم فناني كاريكاتير مثل توماس ناست، جورج بيلوز، جون سلوان، فورين، غاران داش، بييربوم، أس. دي. غيبسون.. وغيرهم كثير[3].

والسخرية، كما تجمع المصادر، تعود جذورها إلى الآداب اليونانية القديمة منذ مرحلة سخرية سقراط في محاورات أفلاطون والتي «تتميز بالتظاهر بالجهل وإخفاء الذكاء وباستعداده للتسليم بآراء مختلفة عن رأيه بغية الوصول على البرهنة على بطلانها». وهي «منهج جدلي يعتمد على الاستفهام مع التظاهر بالجهل بقصد جعل الطرف الآخر يدلي برأي خاطئ، يضطر إلى تصحيحه بنفسه»[4]، وهي بهذا لا تهدف على ربح المعركة فقط، بل نزع الثقة من الخصم وتنقيصه أمام الأشهاد، وفي هذا يكمن بعدها البلاغي»[5].

وعلى المستوى العربي، فقد ولدت الصحافة الساخرة في (أم الدنيا) مصر أولاً، ثم انتشرت في الأقطار العربية الأخرى، خاصة في بلاد الشام، وتحديداً لبنان. وتميزت بالنقد اللاذع الذي أبدعه يعقوب صنّوع في مجلته (أبو نظارة) كلاماً ورسماً. وبدأت الصحافة العربية في تونس تتأثر بالصحافة المصرية، ودخلت ميدان الفكاهة مستعينة باللغة الدارجة. وفي سورية ولدت الصحافة الساخرة بعد الانقلاب الدستوري العثماني عام 1908 تلتها صحف ساخرة في المملكة المغربية والجزائر وفلسطين. والراصد للأدب العربي في عصوره المختلفة، سيجد أن الكاريكاتير بكل ما فيه من تضخيم

(1) عبده الأسدي 16 و 17).

(2) ممدوح حمادة حيث يؤكد ممدوح حمادة بأن الدراسات التشريحية التي قام بها الفنان ليونارد دافنشي (1452 – 1519) والتي سعى فيها إلى استخدام المبالغة والتضخيم في استخدام الوجوه البشرية، تعتبر أولى هذه اللبنات. حيث قام دافنتشي بتنفيذ عدد لا بأس به من الرسوم التي خرق فيها المعايير التشريحية كدراسات تشكيلية بل إن بعضها كان تخطيطاً لوجوه، كان يزمع إدخالها في لوحات شهيرة له. مثل التخطيط الذي يصور فيه رأس يهوذا والذي يؤكد بعض الباحثين أن دافنتشي رسمه كأحد الاحتمالات لرأس يهوذا في لوحته الشهيرة (العشاء السري) - مرجع سابق (ص: 57).

(3) شاكر لعيبي، لمحة في تاريخ فن الكاريكاتور الأوربي،مرجع سابق.

(4) وهبة، مجدي و المهندس، كامل، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، بيروت، مكتبة لبنان 1979، ص111.

(5) العمري، محمد، بلاغة السخرية الأدبية، علامات (إصدار نقدي دوري)، جدة، النادي الأدبي الثقافي، الجزء العشرون، المجلد الخامس، صفر 1417هـ ص28.

للصور، ومبالغة في رسم المشهد المطلوب إبرازه، قد رسم حقاً بالكلمات التي أدت الوظيفة نفسها في حينه، فكتاب كليلة ودمنة، الذي ترجم إلى العربية في فترة مبكرة جداً، لم تخرج رسالته عن رسالة فن الترميز الكاريكاتيري الإعلامي. وقد يكون لقلم الجاحظ السيَّال في رسم الخلل والشواذ في المجتمعات العربية في زمانه، والإشارة إلى التصرفات والممارسات المرذولة أكبر دليل على تقديم المجتمع بقالب كاريكاتيري حاد، جعلت من كتاب البخلاء سلسلة من اللوحات التي يمكن للمرء أن «يشاهدها» بوضوح شديد وبدقة متناهية. كما جسّد العربي «الرسم الكاريكاتوري» بالصور الشعرية (الهجاء) ورسم بالكلمات صوراً شاذة وناقدة للمجتمع، لو أتيح لأحدهم أن يصورها بريشته لأعطت صورا كاريكاتورية مثيرة للضحك.

لا بد من الإشارة هنا إلى أن ما سيرد في هذا الجزء من الدراسة ليست رصداً تفصيلياً أو عرضاً حرفياً لتاريخ الكاريكاتير في العالم العربي، فقد سبقني إلى ذلك باحثون ودارسون كثر، صنفوا واستفاضوا في هذا الأمر، ولكني أعرض لبعض الملامح والجوانب الأبرز في هذه المسيرة، مع علمي بأن في الاختصار هذا إخلالا وظلما للكثير ممن يستحقون أن تذكر أسماؤهم وتسجل بقوة في هذا الإطار. فهذا الجزء من الدراسة سيكون عرضاً غير مفصل لنشوء وتطور الصحافة الساخرة في الوطن العربي، مصنف بحسب الدول التي يتناولها العرض.

مصر:

على المستوى العربي فإن القرن العشرين، ومنذ بدايته، يمكن أن نعتبره بكل ثقة عصر الكاريكاتير المصري، حيث ظهرت في الألفية الماضية العديد من الصحف الساخرة التي رصدت الخلل وفضحت المستور وواجهت السلطة، ورسمت الضحكة على شفاه المصريين، منتقدة سلبيات المجتمع بأسلوب فكاهي من قبيل مجلة «حمارة منيتي» لمحمد أفندي توفيق، وكانت ذات طابع هزلي ونقدي لاذع ساخر، وأيضا مجلة « السيف والمسامير» ومجلة «خيال الظل»، و«ألف صنف» لبديع خيري، ومجلة « الكشكول» والبعكوكة» و«أبونضارة»[1]، و«كلمة ونص» و«الاثنين والدنيا» و«ألف نكتة ونكتة» والتي اختفت تماما في الفترة الأخيرة، مع أن أم الدنيا أنتجت العدد الكبير من الكتاب الساخرين، منهم، محمود السعدني، أحمد رجب، يوسف عوف، حسام حازم، عبد الله أحمد عبد الله، بيرم التونسي، بديع خيري، إبراهيم عبد القادر المازني وعبد العزيز البشري

(1) عنتر عبد اللطيف، راحت فين النكتة الحلوة.. قصة البعكوكة وأبو نضارة وحمارة منيتى، صوت الأمة، الخميس، 16 نوفمبر 2017 08:00 م.http://www.soutalomma.com/Article/709719/

وغيرهم. ورغم بعض المحاولات البسيطة التي كانت تحاول أن تصدر في الفترة الأخيرة إلا أن معظمها باء بالفشل مثل «أيامنا الحلوة»، «مجلة كاريكاتير»، أو بالإغلاق مثل ملحق «أيامنا الحلوة» الذي كانت تصدره الأهرام، أو ملحق «المضحك» الذي كانت تصدره مجلة الإذاعة والتلفزيون أو جريدة «اضحك للدنيا» التي أغلقت أيضا[1].

فالصحافة الساخرة في مصر بدأت بالفعل في مرحلة مبكرة، حيث استقطبت القاهرة الكثير رواد هذا الفن في العالم، ومن بينهم كان الفنان الأرميني صاروخان، في مقدمة الفنانين الذين أسسوا طريقة وأسلوباً خاصاً به، وترك بصمة لا تنسى على الفن الكاريكاتوري، وكذلك الفنان التركي مع هامش واسع من الحرية. ثم ظهر صلاح جاهين وجورج البهجوري وغيرهم في الخمسينيات من القرن الماضي.

ونستعرض في السطور التالية ببعض التفصيل لبعض من أبرز مجلات وصحف الكاريكاتير والفكاهة التي ميزت المجتمع المصري[2]، وبالتالي الصحافة المصرية، حيث تحل «أبونضارة» في رأس القائمة، إذ كان كلما أغلقت السلطات المجلة، يعيد إصدارها بأسماء أخرى منها «أبو نظارة زرقاء» و«أبو صفارة» و«الوطن المصري» و«الثرثارة المصرية». عندما نفت السلطات صنوع إلى فرنسا[3]، قام بإعادة إصدار مجلته تحت اسم «رحلات أبو نظارة زرقاء». بل وكان يصدر ما يسميه إبراهيم عبده «مجلات الضرورة» (الضرورة التي فرضتها عليه القوانين المتعسفة) فكان يصدر المجلة تلو الأخرى فلا يُغيِّر سوى اسمها، فهي «أبو صفارة» وحينما أغلقت ظهرت «أبو زمارة». «التنكيت والتبكيت»، والتي صدر عددها الأول في 6 يونيو سنة 1891م. حيث أصدر عبد الله النديم صحيفته «التنكيت والتبكيت» وهي صحيفة أدبية تهذيبية تناولت النقد بطريقة ساخرة وتضمنت مقالاته بها الدفاع عن الفصحى وبيان أهميتها والدعوة الى المحافظة عليها. صدر من النديم 19 عدداً، وعندما اندلعت الثورة العرابية كان النديم من كبار خطبائها فصدرت الأوامر بملاحقته والقبض عليه، فظل مختفيا لمدة

(1) الشرق الأوسط اللندنية تتساءل : هل فقدت الصحافة المصرية قدرتها علي الهزار ؟ الجمعة 4 يوليو 2008 نقلاً عن موقع صحيفة البشائر الإلكترونية. عنوان الرابط:.http://www.elbashayer.com/index.php?page=viewn&nid=7275

(2) عنتر عبد اللطيف، راحت فين النكتة الحلوة.. قصة البعكوكة وأبو نضارة وحمارة منيتى، صوت الأمة، الخميس، 16 نوفمبر 2017 08:00 م%http://www.soutalomma.com/Article/709719/

(3) يعقوب صنوّع، رائد المسرح العربي، وأول من رسم تعليقاته الكاريكاتورية في مجلته، التي كان يصدرها في أواخر القرن التاسع عشر، بعنوان «أبو نضارة»، حيث كان يهاجم الملك وحاشيته، وممالأته للأجانب، ويتناول فيها مواضيع سياسية واجتماعية ساخنة مما أغضب حاشية الملك والخديوي توفيق، وطبقة النبلاء، إلى أن نفي إلى فرنسا،

عشر سنوات، وعقب القبض عليه جرى نفيه إلى فلسطين. «البعكوكة «، والتي تميزت بقالب الإضحاك بشكل عام، فكان من أبوابها: «آخر نكتة»، «نكتة ميني»، «أضحك بأه»، «ابتسم»، «فكاهات القراء ونوادرهم»، «مسابقة النكت»، و«مغامرات هواش بكاش»، «شاعر البعكوكة»، و«الهجاص». تميزت البعكوكة بشخصيات شهيرة من قبيل أم سحلول والشيخ بعجر وجعران بيه... وقي مراحل متأخرة صدرت مجلة «صباح الخير» (1956) بعنوانها المثير «للقلوب الشابة والعقول المتحررة»، لتنضم إلى شقيقتها الكبرى، «روز اليوسف»[1].

فلسطين:

حتى وإن لم يكن الفنانون دائماً من فلسطين، ولكن فلسطين، كانت دائماً هي الموضوع الرئيسي للكاريكاتير العربي ومادته الدائمة بموضوعاتها «الدسمة». ففلسطين، كانت وما زالت بوصلة العمل الإعلامي في الوطن العربي، بالرغم من تكاثر الأزمات، وتزايد الهموم، وتباعد المواقف والرؤى والتوجهات. ومن أبرز فناني الرسم الكاريكاتيري العرب الفنان الفلسطيني الراحل ناجي العلي الذي كان له بصمته الخاصة في هذا الفن، وقد اغتيل بسبب رسوماته التي كانت المؤشر الحقيقي لنبض الشارع الفلسطيني والعربي. اختار ناجي لرسوماته شخصية «حنظلة»[2]، وهو رسم لطفل يعقد يديه خلف ظهره، ليصبح هذا الرسم توقيعا يمهر به العلي رسومه، كما كانت لديه شخصيات أخرى تتكرر في الرسوم، بينها الشخصية الصريحة الواضحة للمرأة الفلسطينية الحازمة فاطمة، وزوجها الذي ينكسر أحيانا. رسم ناجي العلي قرابة أربعين ألف كاريكاتير خلال مسيرته الفنية (بين لبنان والكويت وبريطانيا)، وكانت ريشته مشرطا يحاول استئصال كل الأورام الخبيثة في الجسم العربي، وغلب على رسوماته الجرأة والصراحة، وملامسة هموم الناس وتوجهات الشارع العربي. اغتيل في لندن يوم 29 أغسطس/آب 1987م.

وتعتبر الفنانة أمية حجا، والتي فازت بجائزة الصحافة العربية عن فئة الكاريكاتير، من أبرز رسامي الكاريكاتير المعاصرين، غزيرة الإنتاج ثابتة الخطى تنتمي إلى جيل الرفض لكل تقارب مع العدو المحتل.. وغيرهم العديد من الفنانين الذي حملوا القضية وعبروا عنها سواء في الداخل الفلسطيني أو في الشتات، إلى جانب أن العديد من

(1) مروة الأمين، الكاريكاتير.. فن الخطاب الجدّي في قالب المبالغة الساخرة، مجلة القافلة، ثقافية منوعة تصدر كل شهرين، يناير – فبراير | 2019 https://qafilah.com

(2) وصفه محمود درويش بأنه «مخيف ورائع هذا الصعلوك.. إنه الحدس العظيم والتجربة المأساوية.. سريع الصراخ طافح بالطعنات ترك خلفه 40 ألف كاريكاتير ترصد أوجاع الأمة.. وفوقهم طفله الصغير... حنظلة»

رسامي الكاريكاتير الفلسطينيين يعملون في الصحافة العربية الخليجية، أو أوروبا والأمريكيتين، وقد برز في الفترة الأخيرة اسم الفنان البرازيلي الفلسطيني الأصل كارلوس لطوف، الذي وصفته الصحافة الإسرائيلية بأنه من أخطر أدوات الفلسطينيين في تبسيط وفهم القضية. كما برز اسم الفنان الفلسطيني المقيم في الدانمارك سليم عاصي الذي يؤكد أهمية رسومات الكاريكاتور في المساهمة بتعريف المجتمع الغربي على القضية الفلسطينية بالرواية الحقيقية وليس المزورة. ومن مخيمات اللجوء الفلسطيني في مخيمات لبنان برز اسم الفنان الساخر الفلسطيني ماهر الحاج[1].

وعلى عجالة ألفت هنا إلى جانب من جوانب خطورة تأثير الكاريكاتير السياسي، كإحدى أدوات الصراع مع العدو الإسرائيلي، مستشهداً بدراسة عبد القادر ياسين المعنونة: «تساؤلات حول دور الكاريكاتير في المعركة – معركة الصراع العربي الإسرائيلي، يشير فيها إلى أن الكاريكاتير العربي «استمرأ تصوير الإسرائيلي بأنفٍ معقوف، وظهر محدودب وثياب بالية، في تناغم مستهجن. ولم يكن هذا صحيحاً، بل العكس هو الصحيح. ومع ذلك فإن الكاريكاتير وقع أسيراً لهذه الخزعبلات فأخطأ وعجز عن تحقيق الأهداف المناط به تحقيقها، والأنكى أن العدو الصهيوني استخدم مثل هذه الرسومات الكاريكاتيرية العربية التي أظهرت العربي في صورة مارد في مواجهة القزم الإسرائيلي في تأكيد للصورة التي بذلت الصهيونية قصارى جهدها لتثبتها في أذهان الرأي العام الغربي، ومؤداها أن إسرائيل مجرد حمل تحدق به الذئاب العربية من كل اتجاه[2]. كذلك فإن الباحث زهدي العدوي، أحد مؤرخي فن الكاريكاتير السياسي العربي، يدين بعض رسامي الكاريكاتير العرب وإسهامهم في صياغة الهزيمة العربية المدوية. حيث يؤكد خطورة الدور السلبي، غير المقصود، للكاريكاتير المصري في صياغة الهزيمة العربية المدوية في حرب يونيو 1967 م. مؤكداً أن الكاريكاتير العربي تحول إلى سلاح في يد الإعلام الصهيوني.

كثيرة هي أسماء الفنانين من فلسطين الذي يمكن أن نذكرهم في هذه السياق، من أمثال محمد سباعنة، محمود عباس، بهاء ياسين، ماجد شاهين، اياد أبو راس، بهاء بخاري.. وغيرهم.

---

(1) رافت فلاح، فن الكاريكاتير.. انعكاس لصورة الواقع في فلسطين، موقع بوابة اللاجئين، الإثنين 28 يونيو 2021
https://refugeesps.net/post/18058/

(2) ياسين، عبد القادر، تساؤلات حول دوره في المعركة، الكاريكاتير في الصراع العربي الأسرائيلي، ملف البيان السياسي، العدد 462، الخاص بالكاريكاتير، 24/3/2000 (ص: 15).

لبنان:

كما كان للبنان دور ريادي في تأسيس وإطلاق الصحافة العربية، فقد كانت بصماته واضحة في ميدان الصحافة الكاريكاتيرية التي أنجبت بعضا من أبرز رسامي الكاريكاتير العرب. وقد ظهرت إنتاجاتهم المميزة في العديد من المجلات والصحف الساخرة في لبنان في مرحلة مبكرة، وإن كانت الهجرة هي السمة التي وسمت الكثير من الصحافيين اللبنانيين بشكل عام ورسامي الكاريكاتير بشكل خاص، سواء تلك التي توجهت إلى أقطار أخرى في الوطن العربي كمصر ودول الخليج أو إلى أوروبا والأمريكيتين، وقد برز العديد من رسامي الكاريكاتير اللبنانيين من أمثال محمود كحيل الذي كانت تظهر رسوماته في أكثر من خمس عشرة مطبوعة عربية وأجنبية، وما يميزه عن غيره هو اعتماده نمطاً وأسلوباً خاصاً قائماً على عدم تضمين الرسم أية كلمات... فهو بالنسبة إليه كان يجسد مقولة «الصورة بألف كلمة» بأفضل طريقة ممكنة. رسوماته الخالية من الكلمات كانت تعبر عن أفكاره، وعن القضايا التي يريد إبرازها وإثارة الجدل حولها، وقد أعاد نشر بعضاً من رسوماته الساخرة في كتاب بعنوان: «بدون تعليق»... إلى جانب العديد من الأسماء المعروفة عربياً وعالمياً في هذا الميدان من أمثال بيار صادق وستافرو ومشعلاني وغيرهم... كما عرف لبنان مجلة « الدبور» التي تعتبر من أقدم المطبوعات العربية الكاريكاتيرية، ومن أطول المجلات الكاريكاتيرية العربية عمراً. يذكر أن أول صحيفة هزلية في لبنان أصدرها نجيب جانا في1910م. ثم تلتها مجموعة من الصحف المماثلة ومنها: «البغلة» و«حمارة الجبل» و«جراب الكردي» وغيرها.

سوريا:

عديدة هي الصحف الهزلية التي عرفتها بلاد الشام، دمشق تحديداً، منها على سبيل المثال لا الحصر: صحيفة (الحمارة) في دمشق والتي كانت تعتبر من أهم الصحف الساخرة التي صدرت في زمن السلطنة العثمانية. وهي صحيفة هزلية أدبية فكاهية انتقادية مصورة لصاحبها، محمد نجيب جانا. وتعرضت هذه الصحف للمصادرة والإغلاق عدة مرات، كما تعرض نجيب جانا للنفي والاعتقال والسجن. وأدى صدور مجلة ساخرة باسم (الفوضى) عام 1899 إلى صدور فرمان من السلطات العثمانية، بنفي (جانا) إلى الهند لمدة مئة سنة وسنة، لكنه وبعد ثماني سنوات صدر العفو، وكان اسم صحيفة الحمارة يتغير حسب الوضع السياسي من (الحمارة) إلى (حمارة بلدنا) في 4 تشرين الثاني عام 1910. وصحيفة (البغلة) 1913. و(حمارة الجبل) حيث إنتقلت

هذه الصحيفة إلى دمشق عام 1919. وكانت تصدر مرتين في الأسبوع بصورة مؤقتة في أربع صفحات.

جريدة (الراوي) صدرت بدمشق في العام 1909م، صاحبها ورئيس تحريرها توفيق الحلبي، كانت لهجتها شديدة. كما صدر في العام 1922 صحيفة (أبو النواس العصري) وبعد إغلاقها أصدر صاحبها صحيفة (أبو فراس) في اللاذقية، ثم كانت (حط بالخرج) صحيفة سياسية فكاهية مصورة أسبوعية، أنشأها هاشم خانكان بدمشق، صدر عددها الأول في العام 1924م. ومن الإصدارت التي عمرت طويلاً كانت (الخازوق) التي أصدرها في دمشق محمد بسيم مراد في 2/8/1928، وفي بعض المصادر 1926، وكانت هزلية انتقادية أدبية مصورة، وقد عمرت طويلاً حيث استمرت في الصدور حتى عام 1941م.

(المضحك المبكي) من المجلات التي عمرت طويلاً، أسسها حبيب كحالة بدمشق سنة 1929، واستمرت إلى سنة 1966م، كانت لهجتها عامية في تعليقاتها السياسية الحادة، و(الحوت) وهي مجلة هزلية انتقادية أخلاقية مصورة، أصدرها فريد سلام على شكل مجلة صغيرة في 16 صفحة عام 1926، وكتب فوق عنوانها (الوطن فوق كل شيء) واستمر في صدورها عشر سنوات لغاية 1936. وصحيفة (السهام) كجريدة أسبوعية أدبية ساخرة ناقدة، أصدرها في دمشق محيي الدين البديوي في ست صفحات، صدر العدد الأول منها في العام 1927م أما جريدة (عصا الجنة) فقد أصدرها نشأة التغلبي عام 1947، «ليروض بها الحكومات ويجعلها مستقيمة» ولهذا السبب بالذات اخترنا اسم عصا الجنة.. وأردناها ساخرة، لا للترفيه والتسلية، وإنما لأن الإصلاح الساخر خير من الإصلاح المتجهم»[1].

الأردن:

أما في المملكة الأردنية، فقد بدأ فنّ الكاريكاتير مع عدد من الفنانين منهم رباح الصغير وجلال الرفاعي وسميح حسني، وشكّل هذا الثلاثي ملامح هذا الفن في الأردن لعقد كامل تقريباً. كما تؤكد دراسة منشورة بعنوان: قصّة الكاريكاتير الأردني والمراحل التي مر فيها، بأن هذا الفنّ بداية مر ّبمرحلة النقل عن الصحف العربية في الستينيات، في ظل عدم وجود رسامين محليين. وقد توسّع فنّ الكاريكاتير في الصحف الأردنية في

(1) محمد عيد الخربوطلي، الصحافة الهزلية الساخرة في دمشق، مجلة الكلمة العدد 102 أكتوبر 2015.
http://www.alkalimah.net/Articles/Read/7709

فترة حساسة واكبت «فك الارتباط» القانوني والإداري والمالي بالضفة الغربية والقدس الشرقية، عام 1988. فحينذاك، رُفعت الأحكام العرفية وانطلقت مسيرة الديمقراطية والانتخابات وظهرت الصحف الحزبية الجديدة والأسبوعيات المنوّعة، ومعها ظهر الرسامون الشباب الجدد[1]. ومنذ فترة التسعينيات حتى اليوم برز العديد من الرسامين في الأردن الذين وصل البعض منهم إلى العالمية، من أمثال الفنان عماد حجاج، مبتكر شخصية أبو محجوب صاحبة الشهرة الواسعة في الوطن العربي، الفنان عمر العبداللات، والفنان محمود الرفاعي، والفنان أسامة حجاج، والفنان محمد الشاعر، الفنان أمجد رسمي، الفنان حمد القحطاني، الفنان أحمد هيشان والفنانة آمنة الحمادي، والفنان فوزي مرسي... ولكن اسم الفنان جلال الرفاعي يبقى إحدى أبرز محطات الكاريكاتير الأردني.

العراق:

تقول الباحثة العراقية رجاء حميد، في دراسة بعنوان: غياب الصحافة الساخرة،[2] بأن العراق تميز بامتلاكه تراثا ضخما من الصحافة الساخرة، فأول ما يتبادر إلى أذهاننا عند قراءة كلمة صحافة الكاريكاتير جريدة «حبز بوز» التي أصدرها الصحافي نوري ثابت، وهو من الأوائل في تاريخ الصحافة العراقية خاصة الهزلية، وقد عرف العراق صحيفة «مرقعة الهندي» الصادرة في البصرة 1909م. وتعد أول جريدة ساخرة. وفي الموصل صدرت صحيفة «جكة باز» الهزلية ومعناها باللغة التركية "الثرثار" في عام 1911م، وبإدارة عبد المجيد خيالي. إضافة لجريدة الكرخ لملا عبود الكرخي، وكناس الشوارع لميخائيل تيسي وقرنـدل 1954 للسيد صادق الأزدي، وقد شكلت كانت علامة مميزة في تاريخ الصحافة العراقية الساخرة، من خلال رسوم جذابة، لديها القدرة على لفت أنظار المثقفين والقراء، ورفع المستوى الشعبي لتوحيد الصفوف والكلمة والتحريض على انتقاد الواقع السياسي ومحاربة كل أنواع الفساد والتردي في الخدمات، وكثيرا ما تعرضت للتوقف والتعطيل. الحقيقة أن العراق تميز بإصدار عدد هائل من الصحف والمجلات الساخرة التي لا يتسع المجال لعرضها ولكن يمكن العودة لبعض الدراسات

(1) فراس حمية، قصّة الكاريكاتير الأردني والمراحل التي مر فيها، موقع أخبارك، الخميس 24 مارس 2016.
https://akhbarak.net/articles/21380419-

(2) رجاء حميد، غياب صحافة الكاريكاتير – الصحافة الساخرة بعد 2003، الصدى نت، 6 يوليو-حزيران 2017.
http://elsada.net/50348/

التفصيلية تناولتها بالمتابعة والتوثيق[1].

ومن أشهر رسامي الكاريكاتير في العراق (الراحل) مؤيد نعمة، عبد الرحيم ياسر، خضير الحميري، عدنان عباس، أحمد الربيعي، علي المندلاوي، رضا حسن رضا، شيرين الراوي وهي أول رسامة كاريكاتير في العراق..[2].

في المغرب العربي

يرى حسان زهار، في دراسته المعنونة: «الكاريكاتير الجزائري.. حرب الأفكار الساخرة بلغتين»، أن أبرز ما يميز الكاريكاتير الجزائري هو ذلك الصراع الفكري الواضح بين الفنانين المعربين الذين يرسمون ويكتبون بالعربية، والفنانين الفرنكفونيين الذين يحملون، علاوة على اللغة الفرنسية طريقة التفكير الأوروبية، وتأثير المدارس الغربية، الأمر الذي أوجد حالة من الاستقطاب الفني في المجالات الصحافية المتنوعة، كان بينها فن الكاريكاتير الذي كان بمثابة حلبة حقيقية لـ«حرب الأفكار» المتصارعة، احتلت خلالها الجزائر صدارة الدول العربية في هذا النوع من التعبير الساخر. وفي فترة التحول الديمقراطي شهدت الجزائر مجلات كاريكاتيرية مثل «بوزنزل»، «المنشار»، «الوجه الآخر»، «الساخر» و«الصح آفة»[3]. ومن الأسماء التي برزت أسبوعية «الوجه الآخر» التي أسسها وأدارها فنان الكاريكاتور عبد القادر عبدو الذي عرف بعد ذلك باسم أيوب، وكان عنوان الصحيفة في البداية «بوزنزل» (الدبوّر) قبل أن يغيّره ويغيّر

(1) وبحسب رجاء حميد فإنه وخلال السنوات الأولى من الحكم الوطني في العراق أي سنوات العشرين وحتى اندلاع ثورة 14 تموز 1958 وتأسيس جمهورية العراق وسقوط النظام الملكي (1921ـ 1958) ، صدرت في العراق جرائد ومجلات هزلية عديدة منها على سبيل المثال : (بابل 15 تموز 1923 للسيد حسين ال كتاب) و(البدائع 30 ايلول 1923 للسيد داؤود العجيل) و(المراقب16 تشرين الاول 1923 للسيد عثمان زهير) و (النديم) و(ابو الشمقمق) و(جحا الرومي19 تشرين الاول 1923 للسيد رشيد الصوفي) و(الحقائق 23 شباط 1924 للسيد عباس حسين الجلبي) و(الأدب) و(الهزل 24 تشرين الاول 1924 للسيد علاء الدين عوني) و(بالك 28 آب 1925 للسيد عبد الحميد فخري) و(المداعب3 كانون الثاني 1926 للسيد حسين يحيى) و(الكرخ 10 كانون الثاني 1927 للشاعر ملا عبود الكرخي) و(التهذيب) و(كناس الشوارع 1 نيسان 1925 للسيد ميخائيل تيسي) و (صدى الحقائق) و(الناظرة) و(الشباب) و(حبزبوز) و (البهلول 27 شباط 1932 للسيد محمد حسن القطيفي) و (المثل 8مايس 1932للسيد محمد حسن صبري) و (أبو حمد 19 تشرين الاول 1933 للسيد عبد القادر المميز) و(القسطاس) و(العندليب) و(قرندل 1954 للسيد صادق الازدي) و(الرياحين) و(الرصافة 2 حزيران 1930 للسيد كمال نصرت) و(الناقد 13 حزيران 1929 للسيد سليمان الشيخ داؤود) و(الفكاهة) و (الكشكول)... كما ورد في دراسة رجاء حميد حول الصحافة الساخرة العراقية. (رجاء حميد، غياب صحافة الكاريكاتير – الصحافة الساخرة بعد 2003م، الصدى نت، 6 يوليو-حزيران 2017م.)

(2) مهدي سلمان الرسام، الكاريكاتيرعالم الرسوم الساخرة، 24 أكتوبر,2018م https://tasrebat.news/ar-chives/109752

(3) حسان زهار، الكاريكاتير الجزائري.. حرب الأفكار الساخرة بلغتين، الجزائر ـ عربي21 ، الخميس، 30 يوليو 2020 https://arabi21.com/story/1289539/

محتواه من الاجتماعي إلى النقد السياسي، وحقق نجاحًا كبيرًا ليكون مصير الصحيفة المصادرة. وسبق للكاتبين الصحافيين محمد زتيلي وصديقه الراحل مصطفى نطوّر، أن أسّسا صحيفة ساخرة عنوانها «مسمار»، إلا أن «مسمار» توقفت عند العدد الثالث، وأودع مؤسّساها السجن لأنّهما تجاوزا بالنقد الساخر «الخطوط الحمراء»[1]. في تونس الخضراء، منطلق الربيع العربي، عرف تاريخ الصحافة العديد من الإصدارات الساخرة والكثير، من الصحف والمجلات الكاريكاتيرية المميزة، والتي رصد الباحث حمادي الساحلي في دراسته المعنونة الصحافة الهزلية في تونس، بعضاً منها، حيث أشار إلى أن «الصحافة التونسية الهزلية تحتل مكانة مرموقة في تاريخ الأدب التونسي نظراً من جهة إلى كثرة العناوين الصحافية الناطقة بالعربية في مطلع القرن العشرين، ونظراً لدورها السياسي والاجتماعي والثقافي الذي شهدته البلاد التونسية خلال تلك الفترة الحاسمة من تاريخها المعاصر»[2] .. وقد ظهر بعضها مبكراً حيث شهدت ولادة أول دورية تونسية هزلية في العام 1884 باسم «كراكوز»، تلتها «الغوغاء» في العام 1887 لتكر السبحة حيث ظهرت «المهرج» (1890) و«المهراس» (1892) ثم «المتشردون» (1900) و«نواقيس تونس» في العام 1905م. وفي العام 1906 ظهرت «العقرب» والتي استمرت في الصدور حتى العام 1914م[3]. وفي مراحل لاحقة برزت العديد من الصحف الساخرة لتصل إلى مرحلة الجفاف شبه التام في العقدين الأخيرين.

وقد عرفت المغرب اسم العربي الصبان كرائد لفن الكاريكاتير المغربي والعربي، وتعتبر صحيفة «لو كانار ليبيري» (البطة المحررة) المغربية الساخرة الناطقة باللغة الفرنسية أحدث إصدارات المغرب العربي الكاريكاتيرية والتي ظهرت مستوحية اسمها من الصحيفة الفرنسية الساخرة «لو كانار انشينيه» (البطة المقيدة) في مطلع العام 2007م[4].

كما أنتجت ليبيا أحد أهم رسامي الكاريكاتير في المغرب العربي وعلى المستوى العربي وهو الفنان المبدع محمد الزواوي الذي نشرت رسوماته في العديد من المطبوعات

(1) الخير شوار، الصحافة الساخرة في الجزائر.. «تجارب بيضاء» و«مصائر سوداء»، 19 نوفمبر 2019م... كلي على المبيعات التي تجاوزت أحيانًا مائة ألف نسخة، وكانت في تطوّر مستمرّ لكنها أُجبرت على التوقّف بشكل قسري عندما منعتها السلطات من الصدور في صيف 1992م،

(2) حمادي الساحلي، الصحافة الهزلية في تونس، نشأتها وتطورها 1906 – 1956، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996م.

(3) محمد حمدان، دليل الدوريات الصادرة بالبلاد التونسية من العام 1838 إلى 1956ن القسم الثاني، تونس.

(4) صدور صحيفة «لو كانار ليبيري» الساخرة الناطقة بالفرنسية في المغرب في مطلع العام 2007 (الخبر منشور على الرابط التالي: http://www.weyak.ae/channels/news/article/view/lang/ar/type/culture/id/404279

المحلية وفي أماكن متعددة في الوطن العربي، والذي كالعديد من الفنانين العرب تحتاج الإحاطة بإنتاجهم إلى دراسات مستفيضة.

كما تحظى الصحف الساخرة بشعبية كبيرة في موريتانيا بفضل أسلوبها الساخر والمنتقد للقضايا الاجتماعية والسياسية، ورغم حداثة عهدها، وتتفوق الصحف الساخرة على التقليدية بفضل أسلوبها الساخر والظريف ولهجتها الشعبية وألغازها وقصصها، حيث استطاعت مغافلة الرقيب وتحقيق مبيعات أعلى من الصحف الأخرى. وتعد صحيفة «أشطاري» وتعني بالعربية «ماذا طرأ» أشهر صحيفة ساخرة في موريتانيا وتستخدم اللهجة الحسانية، مما جعلها تكتسب شعبية واسعة بين الموريتانيين، واستطاعت صحيفة «شي إلوح أف ش» بفضل أخبارها وحكاياتها السياسية الساخرة أن تسرق الأضواء في ظرف وجيز[1].

ومن خلال دراسة مسيرة العديد من الإنتاج المغاربي للصحافة الساخرة يمكن التعميم بأن هذا النوع من الصحافة في المغرب العربي بشكل عام لم تكن لتعمر طويلاً، حيث إن العديد من الصحف المغربية المتخصصة في فن الكاريكاتير كانت ما إن تظهر حتى تختفي. إلى جانب أنه يمكن النظر إليها، كغيرها من العديد من الصحف الساخرة في أنحاء أخرى من الوطن العربي، بأنها لعبت دورا هاماً في مقارعة المحتل ورصد الخلل.

الخليج العربي:

وفي منطقة الخليج العربي، ظهرت الصحافة بشكل عام في فترة متأخرة عن تلك التي ظهرت فيها في الأقطار العربية الأخرى، الأمر ذاته يمكن أن نجده عندما نرصد بدايات ظهور الكاريكاتير في الصحف الخليجية، حيث كانت البداية في الصحافة الخليجية لفنانين عرب يعملون في الصحافة الخليجية واللائحة تطول لذكر الأسماء، ولكن هذا لم يلغ ظهور العديد من المبدعين الخليجيين في هذه الفن. فقد برزت أسماء مثل الفنان محمد الخنيفر وهناء حجار وبدر الفليح وسعد الهويدي ورشيد السليم من المملكة العربية السعودية وحيدر محمد من الإمارات العربية المتحدة وعبد العزيز صادق من قطر وعلي البزاز من البحرين وأيمن سالم من عمان ومحمد ثلاب وعبد الوهاب العوضي من الكويت ومحمد مسعود ومازن من اليمن. وهذا على سبيل المثال لا الحصر. والحقيقة أن الصحافة الخليجية عامرة بالإنتاج الكاريكاتيري، (حيث كانت تصدر بعض الصحف

(1) سكينة اصنيب، صحف موريتانيا الساخرة تحظى بشعبية رغم حداثة التجربة، موقع العربية نت، 29-12-2012م. ttps://www.alarabiya.net/last-page/2012/12/29

كالوطن السعودية أكثر من خمسة رسوم كاريكاتيرية في نفس العدد اليومي مع تنوع موضوعاته كأن يكون كاريكاتير سياسيا وآخر اجتماعيا وآخر فنيا..) ولكن ما يميز الصحافة الخليجية في هذا الجانب عن صحافة بقية الصحافة في الوطن العربي أن جزءًا غير يسير من هذه الرسومات هي لفنانين عرب يعملون في الصحافة الخليجية، إلى جانب الفنانين من أبناء الخليج. وقد ظهرت محاولات لإصدار مجلات متخصصة في الكاريكاتير ولم يكتب لها الاستمرار ولعل أبرز هذه المحاولات تلك التي قدمها الفنان السعودي المبدع محمد الخنيفر. إلى جانب أن العديد من رسامي الكاريكاتير في الخليج العربي، كغيرهم من رسامي الكاريكاتير العرب، جمعوا الكثير من رسوماتهم الكاريكاتيرية المنشورة في الصحف ليعيدوا إنتاجها على هيئة كتب مستقلة.

وقد برز العديد من الفنانات الخليجيات في ميدان الرسم الكاريكاتيري، نذكر منهن: سارة عبدالعزيز محمد قائد من البحرين، سارة النومس كأول فنانة كاريكاتير كويتية، ومن السعودية رسامة الكاريكاتير جاز إسلام... وبالتأكيد، فإن عدد الفنانات الخليجيات عدد لا بأس به، يمكن أن تتناوله دراسة تفصيلية تبرز الإنتاج الفني والمسيرة التفصيلية لفنانات الكاريكاتير في العالم العربي بشكل عام.

حدود الحرية والإبداع والنقد في التعبير الكاريكاتيري:

يقول أحد مؤرخي فن الكاريكاتير: لو تسنى للبشر الاطلاع على أرشيفات الرقابة في مختلف دول العالم لعثروا على رسوم كاريكاتيرية لعظماء السياسة في العالم بأشكال ما كانت تخطر لهم على بال[1]. ومع هذا فإن الكاريكاتير لم يكن دائماً مصدر إزعاج بالنسبة للسياسيين، ففي الوقت الذي كان فيه بعض السياسيين يعتبرون رسامي الكاريكاتير مشاركين ضدهم كالألماني«هلموت سميث»، فإن البعض الآخر كان يعتبر الكاريكاتير معياراً لهبوط أو ارتفاع شعبيته، من أمثال الزعيم الفرنسي شارل ديغول الذي كان يزعجه أن رسامي الكاريكاتير لم يعيروا الاهتمام إلا لأنفه»[2]. فإذا كان العمل الإعلامي بشكل عام، والفنون الصحافية بشكل خاص، يتأثر بشكل أو بآخر بالمناخ الديمقراطي فإنه من الواضح، وكما تؤكد الدراسات، أن الكاريكاتير يُعَد أكثر الفنون الصحافية تأثراً وانعكاساً لذلك، ولعل هذا ما يفسر هذا «الجفاف» في المجلات الكاريكاتيرية المتخصصة في العالم العربي، حيث إنه إذا ما نظرنا إلى مسيرة الكاريكاتير من هذه الزاوية، فيمكننا أن

(1) حمادة، د. ممدوح، فن الكاريكاتير من جدران الكهوف إلى أعمدة الصحافة، دار عشتروت للنشر، دمشق، 1999 (ص:198)

(2) حمادة،، .. مرجع سابق (ص:199)

نجد أن فن الكاريكاتير في العالم العربي كان بحالٍ أفضل في فترات سابقة (النصف الأول من القرن العشرين)، كما أكدنا في الجزء السابق من الدراسة.

ولعلنا في عرضنا لعدد من الحالات التي اشتهرت في مراحل سابقة، نؤكد على أن الرسوم الكاريكاتيرية غالباً ما ينظر إليها بكثير من الحذر من قبل المسؤولين وأجهزة الرقابة. وقد أوردت الكتابات التي أرخت للفن الساخر في العالم عن مدى الكراهية الشديدة التي كان يكنها الزعيم الألماني الفاشي أدولف هتلر لرسامي الكاريكاتير، حيث إنه كان يعتبر من أكثر الشخصيات العالمية التي تناولها فن الكاريكاتير، وأنه قُدم من خلال الرسم الكاريكاتير. وقد حظي رسامو الكاريكاتير بكراهية خاصة لديه وقال فيهم عبارته المشهورة بأنه سوف يقوم بعد احتلال موسكو بشنق ستالين أولاً، وليفيتان ثانياً والكوكرينسكي (وهم مجموعة من رسامي الكاريكاتير) ثالثاً[1].

وليس بعيداً عنا الضجة التي أثارها المسلمون في مطلع العام الميلادي 2003م عندما تجرأ أحد رسامي الكاريكاتير الأمريكيين على نشر كاريكاتير يرمز به للرسول صلى الله عليه وسلم، ملمحاً إلى دور تعاليم الرسول في صناعة الإرهاب والإرهابيين. حيث دعا مجلس العلاقات الإسلامية الأميركية (كير) المعني بالدفاع عن حقوق المسلمين، وصورة الإسلام في الولايات المتحدة، جريدة تلاهاسي ديمقراط الصادرة في ولاية فلوريدا الأميركية، ورسام الكاريكاتير الأميركي المعروف دوج مارلت بالاعتذار عن نشر كاريكاتير يسيء لمشاعر المسلمين في أميركا وخارجها لتطاوله على الرسول صلى الله عليه وسلم بتصويره يقود شاحنة محملة بالمتفجرات[2].

وبالتأكيد فإن من أبرز القضايا التي كان بطلها» الكاريكاتير» هي قضية نشر صحيفة «يلاندس بوستن» الدنماركية لرسوم كاريكاتورية أثارت موجة استنكار وغضب عارمة في العالم الإسلامي احتجاجا على تصويرها المسيء لنبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم، حيث تظهر الرسوم فيها النبي معتمرا عمامة على شكل قنبلة أشعل فتيلها. الرسوم التي تحولت إلى أزمة حقيقية مع العالم الإسلامي، والتي وسمت نهاية العام 2005 والفترة التي تلتها من العام 2006م، بالكثير من المواقف الحادة والنفور على المستويين الشعبي والرسمي. خصوصاً بعد تعنت الحكومة الدنماركية واستمرار تبريرها لإعادة نشر الرسوم، وادعائها بأن نشر 17 صحيفة لتلك الرسوم المهينة ليس سوى رد فعل لما تردد عن وجود مخطط أعلن عنه عدد من المسلمين لقتل أحد الرسامين. لم يتوقف الأمر عند

(١) حمادة،، .. مرجع سابق (١٥٠).

(2) دوج مارلت هو رسام كاريكاتير أمريكي معروف توزع رسوماته على مئات الجرائد في أميركا والعالم.

المجلات والصحف الأوروبية والأمريكية بل إن عدداً من الصحف العربية أعادت نشر الرسوم كما حصل في الأردن والسعودية واليمن ومصر.. غير أن السلطات في البلاد العربية اتخذت إجراءات عقابية بشأن هذه الصحف[1].

وليس بعيداً ما تناولته الأخبار من اعتقال أو توقيف أو طرد لصحافيين بسبب الرسوم الكاريكاتورية. والأمثلة كثيرة من خارج العالم العربي. ففي كندا، بحسب لوموند الفرنسية (الأربعاء 3 يوليو، 2019) فقد رسام الكاريكاتير مايكل دي أدر وظيفته بعد 10 سنوات قضاها مع شركة «برونزويك نيوز، بعد رواج رسم له عن الرئيس الأمريكي دونالد ترامب بشكل اتهامي، ويظهر ترامب في الكاريكاتير، الذي نشره دي أدر على حسابه بموقع "تويتر"، وهو يمارس هوايته المفضلة (لعبة الغولف) على جثث مهاجرين ماتوا غرقا، ويسألهم «هل تمانعون في أن ألعب». ويشير رسم الكاريكاتير إلى أوسكار ألبرتو مارتينيز وابنته البالغة من العمر 23 شهرا، أنجي فاليريا، اللذين ماتا غرقا أثناء محاولتهما عبور نهر ريو غراندي للوصول إلى الولايات المتحدة. ونشرت شركة "برونزويك نيوز" بيانا أكدت فيه أن مايكل دي أدر لم يعرض عليها أبدا الرسوم الكاريكاتورية عن ترامب قبل نشرها.

يقول توفيق الوطني في مقالة بعنوان: رسّام الكاريكاتير بعد «شارلي ايبدو"، قد لا يختلف اثنان حول كون فن الكاريكاتير هو الترمومتر الحقيقي لقياس درجة حرية التعبير في مجتمع ما، لكنّ هذين الاثنين سيختلفان حتماً حول حدود هذه الحرية، ومدى اتساع هامشها، والخطوط الحمر التي يجب أن تؤطرها، وهذا الاختلاف أو الخلاف يطفو على السطح كلّما نُشرت رسوم كاريكاتيرية تعتبرها جهة ما مسيئة لدينها أو عرقها أو ثقافتها[2].

مؤشرات المستقبل والتحديات المقبلة:

نعم لا بد من قرع طبول الإنذار، فالتراجع الذي تعيشه الصحافة المتخصصة في نشر الكاريكاتير واضح، وإن كانت المواقع الإلكترونية عوضت هذا التراجع والغياب بتوفير مساحات لإيصال الكاريكاتير ورسالته على الرغم من الرغم من أنف الرقيب. تؤكد دراسة مارك صايغ، المنشورة في صحيفة الحياة اللندنية، إلى أن هناك تراجعاً ملحوظاً في المكانة التي كان يحتلها رسم الكاريكاتير في وسائل الإعلام، فعدد من الصحف أغلق زاوية الكاريكاتير في صفحاته، وصحف أخرى لم

(1) في رد على إطلاق إيران مسابقة كاريكاتير حول الهولوكوست.

(2) توفيق الوطني، رسّام الكاريكاتير بعد «شارلي ايبدو»، منبر هسبريس، الاثنين 19 يناير 2015م.
https://www.hespress.com

توظف رساماً جديداً بعد ذهاب رسامها أو وفاته، حتى أن إحدى المجلات الأميركية المتخصصة بهذا النوع من الفن السياسي عنونت غلافها: «رسامو الكاريكاتير: جنس على وشك الانقراض»[1]. ويؤكد صايغ أن سبب هذا التراجع ليس اقتصاديا بحتاً[2] . كما يمكننا، في هذا السياق، أن نشير إلى أن السوداوية والتشاؤم يسودان المشهد الإعلامي العام، عند الحديث عن مستقبل الكاريكاتير، في ظل التغيرات التي تدهم الصحافة العربية عموماً، وبعض قوالبها الصحافية تحديداً. فلم يعد الكاريكاتير يحوز مع الحريات الواسعة والتوسع في وسائل الإعلام، وبخاصة مع الإنترنت، الأهمية السابقة، التي كان عليها للسخرية والتحايل على الرقابة وتعويض شح وسائل الإعلام، كما أن الكاريكاتير في الإنترنت أصبح يتيح رسوماً كاريكاتيرية متحركة ومتعددة، تجعله في الصحافة فقيراً ومحدودا. وقد اجتذب النمو الكبير للسوق الإعلانية الرسامين أكثر من الصحافة، ويبدو أن الكاريكاتير كما في الاتجاه العام والعالمي في الصحافة والإعلام يتجه إلى التلفزيون أكثر من الصحافة[3]. يؤكد فنان الكاريكاتير، عمرو سليم، أن قيود السلطة على فن الكاريكاتير، هي الخطر الأول، وأن مستقبل الكاريكاتير متوقف على رسام الكاريكاتير في حد ذاته.

ملاحظات ختامية وتوصيات:

في ختام هذا العرض نتوقف عند بعض التوصيات التي نجد ضرورة التأكيد عليها:

- نؤكد على العبارة التي مرت في سياق الدراسة بأن «الكاريكاتير ترمومتر الحرية»، فهو من أدق الأدوات لقياس ورصد مدى الحرية المتاحة للنقد والإصلاح في المجتمعات.
- ضرورة القيام بالمزيد من الدراسات الاستطلاعية التأصيلية والبحوث الميدانية للتعرف بشكل علمي وموثق على واقع الكاريكاتير العربي، ورصد أهم التحديات والمعوقات التي تواجه مسيرة (الكاريكاتير) الصحافة الساخرة في الوطن العربي.
- التغيير الحاصل في واقع الصحافة المطبوعة وتحولها إلى الإلكترونية (أو صحافة الإنترنت) يجب أن لا يكون عامل يبرر التراجع بل يجب أن يكون عامل تشجيع ودعم لفن الكاريكاتير. والتأكيد على أن فن الكاريكاتير هو من أكثر المواد الصحافية

(1) مارك صايغ، الكاريكاتير يتراجع ويتراجع وفي العالم العربي يتماهى، صحيفة الحياة، العدد 14479، الأحد 10- تشرين الثاني 2002 (ص: 18).

(2) مارك صايغن مرجع سابق، ص 18.

(3) إبراهيم غرايبة، مرجع سابق.

مقروئية ومتابعة. والدراسات تدعم هذا الرأي، لذا يجب أن يتم النظر إلى الكاريكاتير من هذه المنطلقات.

- العمل على توثيق الإنتاجات الكاريكاتورية العربية في هذا الميدان، من خلال التبويب والتصنيف والأرشفة والدراسات والمحفوظات، حيث تعتبر المواد الكاريكاتيرية تراثاً وجزءًا أساسياً من الرصيد الإعلامي العام (هذا الأمر موجود بكثرة في المجتمعات الغربية حيث إن هناك مراكز ومؤسسات تعمل على حفظ ورصد وتوثيق الكاريكاتير).
- نعلم جيداً واقع الحريات الصحافية في العالم العربي، ولكن هذا لا يبرر الدفع باتجاه المزيد من العمل بكل الوسائل لتوسيع حيز الحرية التي يجب أن تتوفر لفنان الكاريكاتير، إذ إن الواقع يؤكد أن فقدان أو تضييق الحرية المطلوبة تخنق وتحاصر الإبداع، خاصة في هذا الميدان، فالعلاقة بين الإبداع والحرية علاقة مصيرية.
- ضرورة دعم فناني الكاريكاتير، للإبقاء على تفرغهم في العمل الصحافي، لأن المؤشرات دلت على أن ميادين أخرى، كميادين التصميم والإعلان، اجتذبت العديد منهم للعمل في إطارها، وضرورة تطوير رسامي الكاريكاتير لأدواتهم المستخدمة في إنتاج الرسوم، من خلال العديد من البرامج والأجهزة، التي أصبحت من متطلبات الصحافي المعاصر ومن ضرورات العمل الصحافي بشكل عام. والتأكيد على إدخال مواد تدريس حول الصحافة الساخرة والصحافة الشعبية والكاريكاتير في مناهج الإعداد في المعاهد الفنية والكليات وأقسام الصحافة والإعلام في الوطن العربي.
- العمل على إيجاد روابط مهنية ونقابات للعاملين في ميدان الرسم الكاريكاتيرين مع ضرورة تأكيد إيجاد مواثيق شرف تحكم المهنة وتوجه مسيرة هذا الفن الصحافي العريق، إذ إن طبيعة العمل في ميدان الرسم الكاريكاتيري تتطلب دعماً للصحافي ليتمكن من المواجهة والاستمرار، ومواجهة تجاوزات السلطة بالكلمة والقلم أمر غاية في الالتزام والتحدي. طبعاً بعض المحاولات لمثل هذه الجمعيات موجودة حالياً على نطاق ضيق في بعض المناطق في الوطن العربي، ولكن يجب التأكيد على أهمية إنشاء ودعم مثل هذه الروابط من أجل تقوية العمل الجمعي، وإعطائها دافعية أكبر للعمل والتواصل.

- **مراجع البحث:**

1. البراغماتي، هل نحن أمة ضاحكة؟ 2008-1-19 - الموقع: http://www.syria-news.com/home.php
2. البيان الإماراتية، «الكتابة الساخرة» ابتسامة باكية في زمن «النكتاجية»، 2010-5-12م. https://www.albayan.ae/five-senses/243906
3. تقرير لصحيفة العرب بعنوان: الكتابة الساخرة فن أدبي يتراجع في العالم العربي العدد: 12108 السنة 43 السبت 2021/07/03 https://alarab.co.uk/
4. توفيق الوطني، رسّام الكاريكاتير بعد «شارلي ايبدو»، منبر هسبريس، الاثنين 19 يناير 2015م. https://www.hespress.com
5. جرادات، د. محمد، الكتابة الساخرة في الصحافة- محاولة للقراءة، دار الان ناشرون وموزعون في عمان، 2018م.
6. جريدة الصباح - العراق، 19 تشرين الثاني (11) 2006.
7. حسان زهار، الكاريكاتير الجزائري.. حرب الأفكار الساخرة بلغتين، الجزائر . عربي21 ، الخميس، 30 يوليو 2020 https://arabi21.com/story/1289539
8. حمادة، د. ممدوح، فن الكاريكاتير من جدران الكهوف إلى أعمدة الصحافة، دار عشتروت للنشر، دمشق، 1999.
9. حمادي الساحلي، الصحافة الهزلية في تونس، نشأتها وتطورها 1906 - 1956، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996م.
10. حمد الماجد، الكتابة الساخرة المهددة بالانقراض، صحيفة الشرق الأوسط، الثلاثاء - 28 شوال 1442 هـ - 08 يونيو 2021 مـ رقم العدد [15533] https://aawsat.com/home/article/3014866/%
11. داليا عاصم، «أبو نظارة» و«الدبور» و«النديم»... جرائد أضحكت العرب حتى اختفت، صحيفة الشرق الأوسط - الاثنين - 8 شعبان 1439 هـ - 23 أبريل 2018 مـ رقم العدد 14391.
12. رأفت فلاح، فن الكاريكاتير.. انعكاس لصورة الواقع في فلسطين، موقع بوابة اللاجئين، الإثنين 28 يونيو 2021م. https://net.refugeesps/post/18058/
13. رجاء حميد، غياب صحافة الكاريكاتير - الصحافة الساخرة بعد 2003م، الصدى نت، 6 يوليو-حزيران 2017م http://elsada.net/50348
14. سكينة اصنيب، صحف موريتانيا الساخرة تحظى بشعبية رغم حداثة التجربة، موقع العربية نت،

29-12-2012م.
15. سمير عطا الله، أين اختفى الساخرون؟ الشرق الأوسط، السبت – 25 شوال 1442 هـ – 05 يونيو 2021 مـ رقم العدد [15530] https://aawsat.com/home/article/3010031/
16. شاكر لعيبي، لمحة في تاريخ فن الكاريكاتور الأوربي مرجع سابق.
17. الشرق الأوسط اللندنية تتساءل: هل فقدت الصحافة المصرية قدرتها على الهزار؟ الجمعة 4 يوليو 2008 نقلاً عن موقع صحيفة البشائر الإلكترونية. عنوان الرابط:
18. صدور صحيفة «لو كانار ليبيري» الساخرة الناطقة بالفرنسية في المغرب في مطلع العام 2007 (الخبر منشور على الرابط التالي: http://www.weyak.ae/channels/news/article/
19. عبد الناصر حسو، الكاريكاتور: الضحك المرّ، صحيفة الثورة السورية، ملحق ثقافي، 2/10/2007م.
20. عبد الوهاب، علاء، البرديات الفرعونية شهدت الميلاد الأول للكاريكاتير، ملف البيان السياسي، العدد 462، بعنوان الكاريكاتير ومبدعوه، 24/3/2000م.
21. عبد الناصر حسو، الضحك المرّ، صحيفة الثورة السورية، ملحق ثقافي، 2/10/2007م.
22. عبده الأسدي وخلود تدمري، دراسة في إبداع ناجي العلي.
23. عمار يزلي، الكتابة الساخرة تشبه الزئبق والكاتب الساخر أذكى من الرقيب، ليس جميع المتظاهرين الجزائريين معارضين.. بعضهم يخرج ليتفرج.. وغيرهم ليتزوج! العدد: 11606 السنة 42 التاريخ 3/2/2020م. https://uk.co.alarab/
24. العمري، محمد، بلاغة السخرية الأدبية، علامات (إصدار نقدي دوري)، جدة، النادي الأدبي الثقافي، الجزء العشرون، المجلد الخامس، صفر 1417هـ، ص28
25. عنتر عبد اللطيف، راحت فين النكتة الحلوة.. قصة البعكوكة وأبو نضارة وحمارة منيتى، صوت الأمة، الخميس، 16 نوفمبر 2017م http://www.soutalomma.com/Article/709719/
26. فراس حمية، قصّة الكاريكاتير الأردني والمراحل التي مر فيها، موقع أخبارك، الخميس 24 مارس 2016م. https://net.akhbarak.com/articles/21380419/
27. كبارة، د. أسامة محمد ظافر، لكل مقام مقال، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 2004م. (ص 15).
28. مارك صايغ، الكاريكاتير يتراجع ويتراجع وفي العالم العربي يتماهى، صحيفة الحياة، العدد

14479، الأحد 10- تشرين الثاني 2002 (ص: 18).
29. محمد حمدان، دليل الدوريات الصادرة بالبلاد التونسية من العام 1838 إلى 1956 القسم الثاني، تونس.
30. محمد عيد الخربوطلي، الصحافة الهزلية الساخرة في دمشق، مجلة الكلمة العدد 102 أكتوبر 2015م. http://www.alkalimah.net/Articles/Read/7709
31. مروة الأمين، الكاريكاتير.. فن الخطاب الجدّي في قالب المبالغة الساخرة، مجلة القافلة، ثقافية منوعة تصدر كل شهرين، يناير – فبراير /2019م. https://:com.qafilah
32. الشماع لـ«الوطن»: التأثير ما زال موجوداً إلا أن هناك الكثير من المتغيرات أثرت في هذا الفن. من تقرير في موقع شام تايمز الإخباري بعنوان: ما قبل تأبين فن الكاريكاتير وواقعه بين اليوم والغد ... 05-02-2020م. https://:com.chamtimes.n/archives/269343
33. منير محمود، مفسدات الكتابة الساخرة آداب وفنون – العربي الجديد، 24 يونيو 2015م https://:www.alaraby.co.uk
34. مهدي سلمان الرسام، الكاريكاتير عالم الرسوم الساخرة، 24 أكتوبر،2018م https://:tasre-bat.news/archives/109752
35. وهبة، مجدي والمهندس، كامل، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، بيروت، مكتبة لبنان 1979م.
36. ياسين، عبد القادر، تساؤلات حول دوره في المعركة، الكاريكاتير في الصراع العربي الإسرائيلي، ملف البيان السياسي، العدد 462، الخاص بالكاريكاتير، 24/3/2000م.